البناء
السنة السابعة / الثلاثاء / 12 كانون الثاني 2016 / العدد 1977
Seventh year / Tuesday / 12 January 2016 / Issue No. 1977

الانتقادات الغربية لأردوغان

■ حميدي العبدالله

دأبت الصحافة الأميركية والبريطانية على توجيه انتقادات لسياسة أردوغان، بما في ذلك سياسته في سورية، علماً أنّ مواقف أردوغان من الأحداث في سورية تتطابق تماماً مع مواقف الجمهوريين في الولايات المتحدة ومعسكر المحافظين الجدد، إضافة إلى مواقف الكيان الصهيوني.

لا شك أنّ هناك أسباباً تدفع الصحافة الغربية لانتقاد أردوغان هي غير الأسباب التي يتذرّع بها الإعلام الغربي، ولا سيما الزعم بأنها تأتي رداً على عدم احترامه لمعايير الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات العامة، فالدول الغربية تقيم علاقات وطيدة مع أنظمة أكثر استبداداً بكثير من نظام أردوغان الذي يُعتبر نظامه واحة للديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات بالمقارنة معها، مثل السعودية وقطر، الأسباب التي تدفع الإعلام الغربي إلى توجيه الانتقادات إلى نظام حكم أردوغان تعود إلى طموحاته الخاصة، ولا سيما دأبه على إحياء تراث العثمانيين، إذ من المعروف أنّ للغرب ذكريات غير حميدة إزاء سياسات تركيا العثمانية.

كما أنّ من بين الأسباب التي تدفع الغرب إلى توجيه الانتقادات إلى أردوغان هو عدم انضباطه بالاستراتيجية الغربية، وسعيه إلى توريط الغرب على نحو لا قبَل له على حمل أكلافه في ضوء تجاربه الأخيرة، ولا سيما في العراق وأفغانستان.

تركيا لا تزال عضواً في الناتو، ولا تزال جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية الغربية ولا سيما الأميركية، ولكن تركيا أردوغان تسعى إلى الاستقواء بالغرب لتحقيق طموحات أعلى مما هو مسموح لها من قبل الحكومات الغربية، ولا سيما من قبل الإدارة الأميركية.

طموحات تركيا أردوغان تعقد وتعرقل عمل الاستراتيجية الأميركية في سورية والعراق.

في سورية لأنها ترفض بعناد التعاون مع أكراد سورية، وهم القوة الوحيدة ذات التأثير على الأرض التي يمكن للغرب التعاون معها من دون أن تنقلب عليه، على الأقلّ حتى الآن. وفي سورية أيضاً يسعى أردوغان إلى تعزيز تواجد مباشر لتركيا لا بدّ من أن ينعكس بمصالح خاصة على حساب ما تتطلع إليه الحكومات الغربية. وفي سورية أيضاً يسعى أردوغان إلى توريط الغرب بتدخل عسكري مباشر، جوي وبري، والغرب يتحاشى هذا الخيار خوفاً من كلفته وتداعياته اللاحقة.

في العراق يخشى الغرب من سياسات أردوغان المماثلة لسياساته في سورية، فهو أيضاً يتطلع إلى ما هو أعلى من المسموح له من قبل الغرب والولايات المتحدة، كما أنه يستفز أطرافاً في الحكومة العراقية لا تستغني الولايات المتحدة عن العمل معها، سواء في مواجهة «داعش»، أو لتحقيق مصالح أميركية وغربية هامة تكرّست بعد احتلال العراق.

هذه هي الأسباب التي تدفع الغرب، ولا سيما الإعلام الغربي لتوجيه الانتقادات إلى تركيا أردوغان، وهي انتقادات تهدف إلى دفع الحكومة التركية للانضباط في الاستراتيجية الغربية، لا أكثر ولا أقلّ.

الحرب الإعلامية اللعينة

■ د. سلوى الخليل الأمين*

احترام حرية التعبير أمر واجب الوجوب، والكلمة الحرة لها مكانها الأرحب عادة، لكن بشرط، أن لا تتجاوز الحقيقة، عبر رسم الباطل مساراً يحتذى، وحين لا تكون وسيلة هدامة تثير الفتن بين أبناء الشعب الواحد، عبر فبركات إعلامية متشقلبة طولاً وعرضاً بين الناس، خصوصاً السذج منهم، بحيث يقلب الأبيض أسود والعكس هو الصحيح، من أجل غايات مكشوفة وواضحة، تبث سمومها عبر وسائل التواصل التكنولوجي المتصل ببعض قوى الإعلام المرئي الأرضي والفضائي، المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإرهاب والصهيونية العالمية.

المؤسف حقاً هو استعمال الكلمة الفتنوية عن سابق تصوّر وتصميم، هذه الكلمة المعبّأة بالحقد الذي طغى على بعض أقلام الإعلاميين، الذين يبهرون الناس بكتاباتهم القائمة على تزوير الحقائق، والغاية واضحة، ألا وهي تنفيذ المخطط الصهيوني القائم على محاربة العرب وإذلالهم وشرذمتهم، وجعلهم فرقاً متناحرة، وذلك من أجل إعلان يهودية الدولة العدوّة وتوسيع حدودها الواضحة في بروتوكولات حكماء صهيون وهي: «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل».

لكن بالرغم مما يجري ويتكاثر تبقى الأقلام المتنوّرة، المؤمنة بقوة الكلمة ومصداقيتها، التي لم تدخل إلى تاريخه بازارات العرب الأثرياء، الذين يشترون الضمائر المعروضة في سوق النخاسة، من أجل المساهمة مع بني صهيون في القضاء على الفكر القومي والعروبي، خصوصاً في بلاد الشام، التي تشكل حجر الرحى في قلب هذه الأمة العربية، التي ابتُليت بحكام هادنوا «إسرائيل» والولايات المتحدة الأميركية، وعقدوا معهما أحلافاً ومعاهدات سلام مزيّف، نتج عنه ضعف مصر وانهيار العراق بعد احتلالها من قبل أميركا، وها هم منذ خمس سنوات يدمّرون سورية الواقفة بصلابة دفاعاً عن الشعب الفلسطيني وحقوقه المهدورة، خصوصاً حق العودة الذي أسقطه العرب من أجنداتهم عن سابق تصوّر وتصميم.

إنّ البلاء الأكبر الذي نعيشه كشعوب عربية حالياً هو توجيه بوصلة العداء نحو دولة إيران الإسلامية وجعلها الهدف المرتجى لحربهم المعلنة، التي تقوم على شراء الكلمة بمثاقيل من الدولارات، تنفيذاً لمخططات استعمارية تقودها الصهيونية العالمية، التي تسعى إلى تدمير الأوطان المناضلة والصامدة، إرضاء لمستعمر كوني عرف في ما مضى كيف يخدع قادة العرب، ويجعلهم يمارسون اللامبالاة باتجاه ضياع فلسطين، وزرع «إسرائيل» كالورم الخبيث في قلب المنطقة العربية، التي ما زالت لتاريخه تعاني من الحروب والخلافات العميقة بين أبناء الأمة الواحدة. وهذا الفعل نتج عنه هذا التشنّج القائم بين السعودية وإيران الذي تنعكس سلبياته على الناس كافة، ليس فقط في البلدين، وإنما على امتداد العالم العربي بسبب تسعير الفتنة المذهبية بين الشيعة والسنة، وهذا ما يتمناه أرباب المؤامرة الكونية الصهيونية.

لهذا من الواضح انّ للكلمة تأثيرها في زمن الإعلام المبرمج على توسيع الشرخ بين الدولتين الإسلاميتين والجارتين... هذا الفخ المنظم الذي نرصد تحرّكاته عبر جامعة الدول العربية واجتماعاتها المسوّرة بالضغوط، يمثل السلاح الخطير الذي لم يعره العرب منذ نشوء الدولة الإسلامية في إيران، وسقوط الأمبراطورية المتمثلة بحكم شاهنشاه، أهمية تذكر، بل كان استعماله لغايات شخصية، تمجّد هذا وتعلي مقام ذاك، وتكذب هنا وتمالئ هناك، وكلها من أجل الحصول على سلطة ما، خوّلت البعض بناء صروحاً صحافية يُشار إليها بالبنان، وكان ذلك على حساب الكلمة الحرة وتشويه الحقائق، إرضاء لمن يدفع أكثر، كما هي الحال حالياً في حروب الردّة هذه، التي ابتُلينا بها كعرب، تحت مسمّى «الربيع العربي» المزيّف، الذي لا يحمل بين طيات أوراقه روائح عنبرية، ولا طبيعة خلابة، ولا أزهار تنثر شذاها بين الممرات، كما الحرائق والتفجيرات المفخخة، والدمار المبرمج، وتفتيت الأوطان، وجرّ الناس إلى الفتن المذهبية، والقتل والذبح، وتهديم آثارات التاريخ التليد، التي تمجّدت من خلالها منطقة بلاد الشام ومصر الكنانة عبر تاريخهم العابر كلّ العصور.

لذا فإنّ المطلوب أن تبقى الكلمة الحرة النظيفة هي المعيار، بل هي السيف القاطع في كلّ زمان ومكان، فكم من عروش هدمت الكلمة، وكم رفعت من أكاليل غار، هذه الكلمة التي مجّدها رب العباد حين كانت هي البدء، وهي يراع البصيرة المتبصّرة، وهي الهداية إلى طريق الصواب والهدي المستقيم، بل هي الشعار المرفوع دائماً وأبداً، لكلّ من أراد إصلاحا أو تغييراً عبر العصور، فالمسيح عليه السلام بدأ رسالته بكلمة متكلماً في المهد صبياً، والنبي محمد بن عبدالله نشر رسالة الإسلام بكلمة إقرأ... وهكذا تدرّجت قيمة الكلمة صعداً عبر العصور، وبقيت هي السيف القاطع، الذي يرسم مسارات التجمّع أحياناً والفرقة أحياناً أخرى، فبالكلمة قفز الزعيم أنطون سعاده إلى قمم الوطن، يعلي رايات الحق نبراس هدي للعقول، التي آنست الخضوع والاستزلام للمستعمر الحاقد، وبالكلمة تغلب زكي الأرسوزي على المستعمرين فكانت القيم الوطنية والمبادئ القومية هدياً للعقول من المستعمر، وبالكلمة أيضاً رفع جمال عبد الناصر رايات العروبة خفاقة حين سلّط الضوء بلسانه على كلّ الخونة من الحكام العرب، وبالكلمة الحرة النقية بنى حافظ الأسد دولة مرهوبة الجانب خاف منها الصديق والشقيق قبل العدو، وبالكلمة ارتفعت الحضارة العربية صعداً، فكان الفلاسفة والأدباء والشعراء أركان نهضة امتدّت من عصور الجاهلية حتى مسار بيت الحكمة في الدولة العباسية، وصولاً إلى عهد النهضة، وعصرنا هذا، الذي شهد الحظر على بعض القنوات الفضائية كـ«الميادين» و«المنار» من إيصال كلمتهم إلى الناس.

لهذا ما زالت الكلمة المزيّفة والمغبّرة حتى هذا التاريخ، هي السلاح الأمضى الذي يدكّ العروش والرئاسات والمقامات، والذي يدمّر الأوطان ويهتك كرامات الشعوب، حين الزمان ليس زمان الوعي، بل زمان العملة الخضراء التي سرقت زهو الكلمة، ودفنت حقائقها البيضاء فوق مهود حمراء وسوداء، لا تدرك أهمية الكلمة والحق الذي يعلو ولا يعلى عليه.

أقول هذا الكلام تعقيباً على كل ما تبثه وسائل الإعلام المتنوّعة ووسائل التواصل الاجتماعي عبر أقلام، من المفروض، أنها عالمة وخبيرة ومثقفة في آن، علماً أنّ المطلوب منها، توخي الدقة في سرد المعلومة والخبر اليقين، ونشر الوعي الوطني بين الناس، لأنّ الناتج السيّئ من خلال تزييف الحقائق، يرتدّ بمفاعيله المؤلمة والمدمّرة على الجميع، من هنا كانت معايير الكلمة الصحيحة هو وضعها في ميزان الذهب، قبل نشرها على العامة، لأنّ مراتب العقول ليست واحدة موحدة، والكلّ يتشاطر في التحليل والشرح، ونشر الخبر السيّئ، حتى لو كان المقصود الفتن المذهبية، والتدهور الأمني، ومخالفة الضمير وإسقاطه في ترّهات لا طائل منها، سوى شنّ حرب إعلامية مردودها سلبي على الوطن، والناس، والوضع الاقتصادي والاجتماعي... وحتى التربوي.

لهذا أصبح الإعلام أخطر أداة حربية في هذا الزمن، فبالكلمة الإعلامية الممغنطة، التي تروّج لأهداف مرسومة، تسقط قيادات وتشطب دول عن الخرائط، وتدكّ حصون، وتدفن عقول في الرمال، والحجج دائماً واهية، حيث قوة المال هي المعيار وهي الحكم، وهي الناتج المحلي، حين ثروات الشعوب تبدّد من أجل الغزو المنظم، والقتل الجماعي، وتدمير الأوطان المستقرة... ولطالما كان بعض الحكام العرب، بغبائهم المعهود، بعيدين كلّ البعد عن إيلاء الإعلام مكانته الأرفع والأرحب نحو الحرية المنظمة والموثقة والمدروسة، بحيث لا تكون الكلمة الإعلامية أداة قتل بحجم صواريخ الباستل المدمّرة أو القنابل العنقودية.

فالإعلام سلاح العصر المتقدّم، لهذا لا يجوز مطلقاً ترك الحابل على غاربه من حيث حرية مزيّفة يتمسك بها البعض تنفيذاً لمآرب وغايات هدّامة، تودي بالمواطن الساذج إلى أن يكون عنصر إرهاب متحوّل نحو الشرّ المنظم سلفاً، من أجل تنفيذ ما يرتضيه الأعلون مساراً لخدمة مصالحهم الخاصة، وإنْ على حساب الوطن والمواطن... خصوصاً أنّ العامة من الناس بل الأغليبة، خصوصاً في وطننا لبنان، باتوا كأحجار الشطرنج يحرّكهم البعض من المتسلّطين في الداخل والخارج، كيفما طاب له المناخ... والشعب غاف لا يدري ماذا يفعل... وهنا الطامة الكبرى التي تهلك الوطن وتسقطه على رؤوس الجميع.

كم نحن بحاجة إلى كلمة سواء وإنْ بالحدّ الأدنى، كي يلتئم الشمل، من أجل تثبيت الأسس الصحيحة لوطن عربي قدير... من حقه أن يبدع ويشعّ بهمة أبنائه الذين أعاروا عقولهم لبناء حضارة العالم الحديث.

* رئيسة ديوان أهل القلم

تصعيد سعودي خطير وتفهّم إيراني لافت

تتصدّر السعودية المجموعة المؤلفة من تركيا و«إسرائيل» في قائمة رفع الاعتراضات للبيت الأبيض، في محاولة لإظهار انّ القرار الأميركي بالخضوع لإيران في تسويتها النووية هو قرار غير مرغوب فيه حتى الساعة من قبل جوارها كله، وانه زاد الوضع سوءاً بدلاً من أن يمهّد لتسويات ويسهّل القضايا والحلول، بدليل ما فتحته السعودية من حرب مع اليمن وشعبه في محاولة لبث الغبار ليلة التوقيع على الاتفاق بين إيران والدول الغربية، وكلّ متابع يتذكّر مفاجأة الحرب اليمنية التي لم تستطع حتى الساعة تحقيق شيء من مبتغاها.

السعودية التي تبدو أنها لم تستفق من كابوس التوقيع النووي مع إيران، ليست لوحدها، وهي لا تريد ان تتقبّل الواقع الجديد الذي يعني بكلام او بآخر انها ستتحجّم من موقع الخاضع للمتغيّرات وليس صانعه أو صانع الحدث، وهنا يلفت النظر انّ كلّ هذا المسار يصبّ في نهاية المطاف في خانة لفت نظر الأميركي بشكل مباشر، وهنا جمعت المملكة العربية السعودية وزراء خارجية الدول العربية بشكل طارئ من أجل تسجيل اعتراض على تدخل إيران في شؤون دول المنطقة، وكأنه تدخل أجنبي في شؤون دول عربية كلها تماسك وحرص على حفظ الكرامة، مسجلة اعتراضها على حرق السفارة السعودية في إيران، مستغلة في الوقت عينه التصويب على حزب الله وهو حليف إيران الأبرز.

السعودية التي تريد تمديد الوقت قبل ان يحين موعد قطار التسويات تعرف انّ العودة الى الوراء مستحيلة، لكنها في الوقت عينه تعرف أنّ أيّ تسوية على حسابها هي دمار لنظامها وبداية عدّه العكسي، من هنا فإنّ أيّ تفاؤل بخضوع سعودي في تمرير حلول جدية هو حتى الساعة مستبعد، بدليل ان نواياها في الحلّ خاصة في اليمن لم تكن جدية على الإطلاق، فهي تجتمع مع خصومها في سويسرا من دون ان تقدم ايّ جديد او متغيّر، وكانت قد أعلنت منذ الشهر الأول عن نهاية عمليتها العسكرية، وغذ بها تمدّها لعشرة شهور أخرى، وبالتالي فإنها غير جادّة لا في سورية ولا في اليمن ولا في العراق، لأنّ أيّ إقدام من هذا النوع هو بدء العدّ العكسي لنظامها الذي سيعتبر انه قد هزم هزيمة نكراء فاتحة الباب امام ايّ خضة داخلية.

أما إيران فتبدو أنها تتفهّم بشكل كبير وواع جداً قيمة ما جرى بالنسبة للمملكة، ولهذا السبب فإنها تتلقف كلّ الخضات التي تسبّبها المملكة لإيران ولحلفائها في المنطقة، تماماً كما فعلت بعد حادثة منى، حيث بدت إيران الأكثر تعقلاً في السلوك، حتى ولو صدرت مواقف غاضبة قليلاً، وهذا طبيعي في مواجهة خسارة بشرية كبيرة كالتي ألمّت بها، لكنها ما لبثت أن اتجهت نحو تهدئة الأوضاع والنفوس، والأمر نفسه هو الذي حدث مع إعدام الشيخ نمر النمر الذي تدرك إيران انّ كلّ ما تبتغيه السعودية من إعدامه ليس إلا فتح نافذة جديدة او ملف جديد من التعقيد لتهرب من الحلول، حتى ولو كانت اخطرها على الإطلاق، من خلال اللعب بالملف الطائفي والمذهبي.

السعودية تنازع وايران تتفهّم وقع الهزيمة السعودية أمامها بحكمة وثبات مع توقّعها الأسوأ من مملكة مستعدّة هذه المرة للقيام بكلّ شيء يثبّت أرجل نظامها.

«توب نيوز»

حيرة الرياض

ـ المواعيد المقرّرة للتفاوض اليمني والسوري بين حكم ومعارضة لها سقف سياسي واحد تقريباً هو تشكيل حكومة جامعة تحت عباءة الرئيس الحالي تمهيداً لانتخابات حرة.

ـ في اليمن تدعم السعودية الرئيس وفي سورية تحاربه.

ـ مضمون التسويات في كلّ بلد يجب أن تطبّق على البلد الآخر.

ـ فإذا قيل انتقاد دعم الدول الخارجية للرئيس وتأييد دعم المعارضة بقصد سورية صار المعنى اليمني للكلام إدانة السعودية وتأييد إيران.

ـ إذا قيل دعم شرعية الرئيس بقصد اليمن صار المعنى السوري غير مناسب للسعودية.

ـ إذا تمّ التشديد على وقف النار وفك الحصار كأولوية للتفاوض كان الأمر مناسباً للسعودية في سورية لكنه غير مقبول في اليمن.

ـ إذا وضعت إجراءات للتحقق من عدم نيل المعارضة أيّ دعم عبر الحدود كان الأمر مناسباً في اليمن وغير مناسب في سورية.

ـ إذا قيل انّ المعارضة مجبرة على تسليم مناطقها للشرعية كان ذلك مفيداً في اليمن وغير مفيد للسعودية في سورية.

ـ في الحصيلة سيكون التفاوض بسقف واحد والمشكلة الكبرى أنّ نهايته انتخابات حرة لا تناسب السعودية، لا في سورية ولا في اليمن.

التعليق السياسي

التحديات التي تواجه العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

■ د. محمد شعيتاني*

التحديات الداخلية هي التخلف، والإرهاب، والفهم الخاطئ للاسلام، أما التحديات الخارجية فهي: الخوف من الإسلام في الغرب، وصدام الحضارات، والعولمة. ولا بدّ أن يدرك المسلمون أمام هذه التحديات أنهم إذا أرادوا لأنفسهم الحياة فإنه ليس أمامهم – في القرن الحادي والعشرين – خيار غير خيار العلم والتقدّم والحضارة، وأيّ طريق آخر سيدفعهم إلى بقاء حالة التخلف.

تمهيد

لا جدال في أنّ عصرنا يختلف اختلافاً جذرياً عما سبقه من حقب تاريخية، ولعله لا مجال هنا للمقارنة نظراً لما طرأ على عالمنا المعاصر من تطورات، وما جدّ فيه من متغيّرات متسارعة، وما ظهر فيه من مخترعات باهرة لم تكن تخطر على بال أحد من كتاب روايات الخيال العلمي. فالواقع المعاصر فاق كلّ التوقعات، إنه عصر الثورة العلمية والتكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات والاستنساخ. وكلّ يوم يشهد عالمنا المعاصر مزيداً من الاكتشافات والمخترعات والمفاجآت، ويخلق ما لا تعلمون.

والسؤال هو: أين عالمنا الإسلامي من ذلك كله؟

ألا يعدّ جزءاً من هذا العالم الذي نعيش فيه، والذي أصبح – كما يُقال كثيراً – مثل قرية كونية صغيرة؟

ألا يتأثر بكل ما يحدث في هذا العالم من متغيّرات؟ وهل يستطيع أن يعزل نفسه عن ذلك كله؟

هل اكتفى عالمنا الإسلامي بدور المتفرّج على ما يدور حوله من تطورات، وقنع بدور المستهلك لما ينتجه عالمنا المعاصر من منجزات في مجالات العلم والتكنولوجيا والترفية؟

إنّ ما جدّ في العالم من تطوّرات على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية يحمل معه تحدّيات كثيرة لعالمنا الإسلامي، فهل استعدّ المسلمون لمواجهتها وبذل الجهد للتغلب عليها؟

وقبل الدخول في تفاصيل هذا الموضوع نودّ هنا أن نؤكد أنّ كلّ التحديات التي تحيط بعالمنا الإسلامي ليست تحدّيات تواجه الإسلام بوصفه الدين الخاتم الذي تستطيع شريعته أن تواجه كلّ الظروف والمتغيّرات في كلّ زمان ومكان لما تمتاز به من المرونة والاعتدال. فالتحديات القائمة واللاحقة هي في حقيقة الأمر تحدّيات للمسلمين وليست تحدّيات للإسلام بذاته.

إنها تحدّيات تواجه عقول المسلمين وقدرتهم على استيعاب تطوّرات العصر، والوعي بالزمن، والوعي بالتطوّر التاريخي.

والوعي بالزمن يعني وعياً بحركة الزمن من ماض إلى حاضر إلى مستقبل، وأنها دائماً في صعود. فالتاريخ يسير إلى الأمام ولا يتراجع إلى الوراء، أما الوعي بالتطور التاريخي فإنه يعني نقلة نوعية تشتمل على إضافة حضارية يسجلها التاريخ. وحتى يكون هذا الوعي حاضراً في الأذهان لا بدّ من التغلب على العقبات التي تعترض طريق هذا الوعي وتحجب عنه الرؤية الصحيحة والإدراك السليم.

وهذه العقبات تمثل تحدّيات أمام الأمم. والأمم التي تدرك ما يدور حولها بوضوح وتدرك متطلبات كلّ عصر، تستجيب للتحدّي وتتغلب عليه وتكون جديرة بالحياة والبقاء، أما الأمم التي تنهزم أمام التحدّي فإنها تفنى وتنطوي صحيفتها في زوايا النسيان دون أن تقوى على التحرك نحو المستقبل.

التحديات المعاصرة

إنّ التحديات التي تواجه المسلمين في عالم اليوم هي تحدّيات معقدة وفي حاجة إلى إرادة قوية وعزيمة صادقة لتجاوزها والسير صعداً نحو مستقبل مشرق إنْ شاء الله.

وعندما نتأمّل هذه التحدّيات نجد أنها ليست كلها جديدة تماماً، فقد بدأ بعضها في الظهور في النصف الأخير من القرن العشرين وبصفة خاصة في العقد الأخير منه، فقد حدثت في هذا العقد تطوّرات بالغة الأهمية وعلى رأسها انهيار الاتحاد السوفياتي السابق، وظهور القطب الواحد في العالم، وانتشار الخوف غير المبرّر من الإسلام في الغرب بوصفه العدو البديل أو الخطر القادم الذي يهدّد الحضارة العالمية، والترويج لنظريتي «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ»، والتطورات العلمية الجديدة مثل الاستنساخ وزراعة الأعضاء، وغيرها مما قد يزعزع المعتقد الديني في عالم القرن الواحد والعشرين.

وإذا كانت هذه التحدّيات تمثل تحدّيات خارجية فهناك بالإضافة إلى ذلك تحدّيات داخلية عديدة من أهمّها: التخلف الذي تعاني منه الأمة الإسلامية، وانتشار ظاهرة الإرهاب في العالم الإسلامي على نطاق واسع، رغم أنها تعدّ ظاهرة عالمية. ويرتبط بذلك كله أيضاً بالفهم الخاطئ للإسلام، والتفسيرات المغلوطة لتعاليمه، وخطر الأصدقاء الجهّال للإسلام الذين هم أشدّ ضرراً على الإسلام من خصومه. وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل يبيّن موقف الإسلام من ذلك كله.

التحديات الداخلية

التغلب على التحدّيات الداخلية يعدّ المدخل الطبيعي للتغلب على التحدّيات الخارجية، فترتيب البيت من الداخل يعني أن تكون له الاولوية، فضلاً عن أنه من ناحية أخرى مرتبط بشكل وثيق بتحدّيات الخارج، بمعنى أنه إذا تعافى العالم الإسلامي من أمراضه الداخلية وتغلّب على تحديات الداخل فإنه يكون حينئذ في وضع يؤهّله للتغلب على التحدّيات الخارجية. وفيما يلي نلقي بعض الضوء على أهمّ التحدّيات الداخلية...

أ ـ التخلف

يعدّ التخلف – الذي يسود المجتمعات الإسلامية – أخطر التحدّيات الداخلية التي تواجه العالم الإسلامي. وهذا التخلف ليس تخلفاً على المستوى المادّي فحسب، وإنما هو تخلف شامل لشتى النواحي العلمية والفكرية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولا يغرنّ أحداً تلك القشرة الحضارية الظاهرية في عالمنا الإسلامي. فالمسلمون اليوم – للأسف الشديد – ليسوا أكثر من مستهلكين لمنجزات الحضارة المعاصرة وليسوا منتجين لها أو مشاركين فيها.

صحيح أنّ أسلافنا قد تركوا لنا رصيداً حضارياً ضخماً لا زلنا نعتز به ونفخر، ولكننا وقفنا عند هذا الحدّ ولم نبذل أيّ جهد حقيقي يضيف جديداً إلى ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا. ورحم الله جمال الدين الأفغاني الذي قال ذات مرة: «إنّ الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟» ويضيف الأفغاني قائلاً: «نعم لقد كان آباؤكم رجالاً، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»(1).

إنّ حالة التشرذم المسيطرة على العالم الإسلامي تعدّ أكبر دليل على مدى التخلف الذي تعانيه أمتنا الإسلامية في الوقت الذي يتجه فيه عالمنا المعاصر إلى التوحّد في تكتلات دولية قوية.

وعلى الرغم من أنّ عالمنا العربي قد سبق أوروبا في محاولته التوحد في إطار الجامعة العربية، وعلى الرغم من تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي بعد ذلك بسنوات، فإنّ هذه الروابط العربية الإسلامية لا تزال ضعيفة وغير مؤثرة، في الوقت الذي قطع فيه الاتحاد الأوروبي خطوات عملاقة. فقد أصبحت هناك عملة أوروبية واحدة، وتعاون اقتصادي قوي، وبرلمان أوروبي واحد، وتنقّل حرّ للأفراد بين دول الاتحاد، وغير ذلك من مجالات أخرى كثيرة للتعاون.

ويحاول خصوم الإسلام نسبة التخلف في العالم الإسلامي إلى الإسلام، ويزعمون أنه هو الذي يشدّ أتباعه إلى الوراء دائما ولا يتيح لهم حرية الحركة للانطلاق نحو آفاق التقدّم. وهذا اتهام لا يستند إلى أيّ أساس لا من العلم ولا من الواقع التاريخي. فالإسلام هو الذي دفع المسلمين في السابق إلى بناء حضارة مزدهرة استمرّت ما يقرب من ثمانية قرون.

وإذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالعلم فإنّ الإسلام قد جعل العلم فريضة لا تقلّ شأناً عن فرائض الصلاة والصوم والزكاة، وجعل مداد العلماء مساوياً لدماء الشهداء، ووصف العلماء بأنهم أخشى الناس لله، لأنهم الذين يدركون أسرار الخلق وجلال الخالق. وإذا كان الإسلام دين العلم والحضارة على النحو الذي أشرنا إليه فكيف وصل الحال بالمسلمين إلى أن تصل نسبة الأمية لديهم إلى 46.5% طبقاً لبيانات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإسيسكو)، وأن تصل هذه النسبة في أوساط النساء في بعض البلاد الإسلامية إلى 60%.

فإذا انتقلنا إلى مجال التجارة والاقتصاد نجد أنّ عالمنا المعاصر يتجه – كما سبق أن أشرنا – إلى تكوين التكتلات الاقتصادية الكبرى والشركات العملاقة المتعدّدة الجنسيات، وذلك في الوقت الذي نجد فيه أن حجم التجارة البينية في العالم الإسلامي والعربي لا يتجاوز نسبة 8% من مجموع تجارته مع بقية دول العالم، وذلك طبقاً لآخر التقارير الرسمية للبنك الإسلامي للتنمية. وهذا واقع مؤلم، فهذا التخلف سيظلّ قائماً طالما ظلّ اعتماد العالم الإسلامي في كلّ شيء – حتى في غذائه – على العالم الخارجي.

والمسلمون لديهم ثروات بشرية كبيرة وثروات مادية هائلة تتمثل في البترول والمعادن المختلفة التي لا يزال الكثير منها مطموراً في باطن الأرض، ويعيشون في مناطق استراتيجية في العالم ولا ينقصهم إلا الإرادة القوية والعزيمة الصادقة.

وقد يميل البعض إلى تفسير ما نقوله في هذا الصدد بأنه لون من ألوان جلد الذات وليس هذا بالقطع ما نقصده. إننا في أمسّ الحاجة إلى نقد موضوعي للذات، وهذا ما نفتقده في واقع الأمر. ونقد الذات الذي نقصده هو الخطوة الأولى على الطريق الصحيح.

إننا – نحن المسلمين – أشدّ الحاجة إلى وقفة صادقة مع النفس نراجع فيها مواقفنا ونتأمّل أحوالنا بكلّ الصراحة والموضوعية، نحن في حاجة إلى أن نتحسّس مواقع أقدامنا لنتأكد بصدق ما إذا كانت الأرض التي نقف عليها ثابتة قوية، أم أنها قابلة للانهيار عند أول خطوة. وليس عيباً أن نواجه أنفسنا بعيوبنا وأخطائنا، ولكن كلّ العيب أن نتجاهل ذلك كله ونكذب على أنفسنا معتقدين – خطأ – أنّ كلّ شيء على ما يرام.

ب ـ ظاهرة الإرهاب

تعدّ ظاهرة الإرهاب من أخطر التحدّيات الداخلية التي تواجه العالم الإسلامي. وقد شهدت الأعوام الأخيرة على وجه الخصوص تطوّر هذه الظاهرة بشكل مخيف، إذ اتجه الإرهاب إلى القتل والتدمير للأبرياء دون تمييز بين طفل وامرأة وشيخ وشاب، وتعدّى ذلك إلى التمثيل بالقتلى دون سبب مفهوم، وفي كثير من الأحيان تحت شعار إسلامي، وبصيحات الله أكبر!

وعواقب هذا الإرهاب مدمّرة لقدرات الشعوب الإسلامية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، كما تمثل عقبة كأداء أمام تنفيذ الخطط التنموية في البلاد الإسلامية، ولا شك في أنّ الإرهاب في العالم الإسلامي يلقى الدعم والتخطيط من رؤوس الإرهاب في الخارج، وبخاصة في الدول الأوروبية التي وفرت لهم على مدى عقود الملاذ وحرية الحركة تحت مظلة الحماية المزعومة لحقوق الإنسان.

وفي تقديري أنّ مواجهة الإرهاب في العالم الإسلامي قد اتّسمت بقصور شديد، إذ نظر الكثيرون إليها على أنها صراع بين الإرهاب والحكومات. ومن هنا لم يظهر الدور الشعبي في الصورة، وترك الأمر – في غالب الأحيان – للحكومات بأجهزتها الأمنية. وذلك خطأ فادح، فخطر الإرهاب يمسّ الشعب كله بجميع فئاته، ويمسّ مصالح كلّ فرد فيه، فالإرهاب يهدف إلى زعزعة استقرار المجتمع وتهديد أمن الوطن والمواطنين.

ومن هنا فإنّ التغلب على التحدّي الذي يمثله الإرهاب يجب أن يكون مسئولية المجتمع بأسره. فلم يعد مقبولاً ولا معقولاً أن يعتمد الكلّ على المواجهة الأمنية فقط، أو أن تتحمّل أجهزة الشرطة دون غيرها كلّ المسؤولية. إنّ الأمر يتطلب وضع خطة قومية شاملة لمواجهة الإرهاب تحدّد فيها واجبات ومهامّ كلّ جهة – حكومية كانت أم أهلية – ويتمّ تنفيذ ذلك عن طريق خطط فرعية خاصة بمجالات عمل كلّ جهة وذلك في إطار الخطة العامة.

أما ما يطلقه الإرهابيون من شعارات إسلامية فإنها لا يمكن أن تخدع عاقلاً لأنّ الأديان كلها، والإسلام بصفة خاصة، ترفض العنف والقتل والإرهاب، وتدعو إلى الرحمة والأخوة والسلام. والإسلام إذ يرفض العدوان رفضاً قاطعاً فإنه يعتبر قتل نفس واحدة كأنه قتل للإنسانية: (مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً) (المَائدة ـ 32).

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أنّ الرحمة هي الهدف الأساسي للرسالة الإسلامية – كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطباً نبيّه: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الانبياء ـ 107).

ج ـ الفهم الخاطئ للإسلام

إنّ الإسلام هو دين الاعتدال والوسطية، يكره التطرف والغلوّ في الدين، ويدعو إلى التيسير على الناس والرحمة بهم، وعلى الرغم من تعاليم الإسلام الواضحة في هذا الشأن فإنّ هناك اتجاهات تفسّر الإسلام على هواها، وتريد أن تشدّه ناحية اليمين أو ناحية اليسار بتفسيرات خاطئة تجعل منه إما ديناً جامداً متقوقعاً لا يقوى على مسايرة الزمن، ولا يراعي متغيّرات الحياة، وبذلك يشدّونه إلى فهمهم السقيم ويضيّقون رحمة الله الواسعة، وإما أن يجعل منه فريق آخر ديناً دموياً عدوانياً متعطشاً لسفك الدماء. وكلا الاتجاهين لا مكان له من الحقيقة ولا يعبّر إلا عن الرؤى المريضة لمن يتحدّثون بها.

فالإسلام إذ يرفض الجمود والانغلاق والتقوقع، فإنه من ناحية أخرى يرفض رفضاً قاطعاً كلّ شكل من أشكال العنف والعدوان أو القتل والتخريب، ويسمّي القرآن ذلك بأنه إفساد في الأرض يعاقب مرتكبوه بأشدّ العقاب في الدنيا والآخرة: (أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المَائدَة ـ 33).

والفهم الخاطئ للإسلام يرجع إما إلى جهل أصحابه بجوهر تعاليم الدين كما هو الحال لدى الفريق الأول، أو خداع الجماهير برفع شعارات دينية لتحقيق أغراض دنيوية كما هو الحال لدى الفريق الثاني.

والأمر يحتاج إلى كشف زيف التفسيرات الباطلة في كلتا الحالتين، وإبراز قيم الإسلام السمحة التي تحضّ على الرحمة والتراحم والتسامح والعدل حتى مع الأعداء.

وربما يكون الفريق الأول حسن النية في مقابل سوء نية الفريق الثاني. ولكن حسن النية قد يؤدّي أيضاً إلى عواقب وخيمة لا تحمد عقباها. فالصديق الجاهل قد يكون أشدّ خطراً – دون أن يدري – من العدو العاقل، على الأقلّ لأنّ العدو يسفر عن عداوته، وبالتالي يمكن أخذ الحذر منه والاستعداد لمواجهته. أما الصديق الجاهل المحسوب على الإسلام والذي يبدي أشدّ الحرص على حمايته بأسلوبه المتخلف، فإنه بذلك يمثل عقبة في طريق التقدّم ولا يستطيع أن يفهم ما يدور حوله من تطوّرات، فضلاً عن عدم فهمه لجوهر الإسلام وروحه بوصفه ديناً حضارياً إنسانياً بكلّ معنى الكلمة.

وحتى يستطيع الإسلام أن يتجه بخطى ثابتة وحثيثة نحو المستقبل فلا بدّ لأتباعه من التخلص من هذا المرض المزدوج، وذلك عن طريق الفهم المستنير للإسلام وتعاليمه، والكشف عن الوجه الحضاري لهذا الدين الذي تتوافق تعاليمه مع كلّ زمان ومكان وتثبت قدرته على التطوّر ومواجهة متغيّرات الحياة، وقدرته الذاتية على الصمود أمام التحديات. وتاريخ الإسلام شاهد على ذلك.

وإذا اتضح لجماهير المسلمين أنّ الإسلام بريء من جهل أصدقائه ومن شذوذ من يدّعون أنهم يقتلون دفاعاً عنه، فإنّ ذلك من شأنه أن يمهّد السبيل للتغلب على الصعاب والتحدّيات الأخرى الخارجية والتي تتخذ من الفهم الخاطئ للإسلام من جانب هذين الفريقين ذريعة لوصف الإسلام بكلّ الرذائل.

*رئيس هيئة حوار الأديان
باحث في الشؤون الإقتصادية والسياسية